تخصيص الدلالات العامة للألفاظ

تأليف
دكتور
عبد الحليم محمد عبد الحليم
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين جامعة الأزهر ـ القاهرة

(م ٢٧ ـ حولية)

تخصيص الدلالات العامة للألفاظ

مما لا يقبل الجدل أن الكلام عبارة عن أصوات قطعتها أعضاء الإنسان المشتركة التى نسميها بجهاز النطق ، ذلك الجهاز الذى يبدأ من الحجاب الحاجز وينتهى بالشفتين والأنف .

وتبدأ عملية تقطيع الصوت فى أماكن متعددة من ذلك الجهاز المعجز ليكون لكل صوت لون . وقد عقد علماؤنا القدامى صلة حميمة بين الصوت والحرف ، يقول ابن جنى : « اعلم أن الصوت عرض يخرج مع النفس مستطيلا متصلا حتى يعرض له فى الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده واستطالته ، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا »(١) .

وقد أطلق الحرف على الصوت مع أن الفرق بينهما واضح فالصوت اسم لما ينطق والحرف اسم لما يرسم ويكتب .

ويقول الكيا الهراسى(٢) مفسرا حاجة الانسان إلى استعمال أصوات للتعبير عن مقصوده وغرضه : « لأن كل واحد من الخلق لا يمكنه أن يقوم بجملة مقاصده فحينئذ لا يخلو أن يكون محل حاجته حاضرة عنده ، أو غائبة بعيدة عنه ، فان كانت حاضرة بين يديه أمكنه الإشارة اليها ، وإن كانت غائبة فلا بد له من أن يدل على محل حاجاته وعلى مقصوده وغرضه ، فوضعوا الكلام دلالة ، ووجدوا اللسان أسرع الأعضاء حركة وقبولا للترداد ، وهذا الكلام إنما هو حرف وصوت ، فإن تركه سدى غفلا امتد وطال ، وإن قطعه تقطع ، فقطعوه وجزأوه على حركات أعضاء الانسان التى يخرج منها الصوت ،

---

(١) سر صناعة الاعراب ج ١ ص ٦ .
(٢) فقيه شافعى مفسر ولد فى طبرستان وسكن بغداد توفى سنة ٥٠٤هـ

وهو من أقصى الرئة إلى منتهى الفم ، فوجدوه تسعة وعشرين حرفا لا تزيد على ذلك ، ثم قسموها على الحلق والصدر والشفة واللثة ، ثم رأوا أن الكفاية لا تقع بهذه الحروف التى هى تسعة وعشرون حرفا، ولا يحصل له المقصود بافرادها ، فركبوا منها الكلام ثنائيا وثلاثيا ورباعيا وخماسيا ، هذا هو الأصل فى التركيب ، وما زاد على ذلك يستثقل »(٣) .

وبهذا ميز الله الإنسان بهذه القدرة على صنع مقاطع من الأصوات صنعها بارادته لا بغريزته ، وكانت هذه الأصوات رموزا صورت المعانى المختمرة فى ذهنه ، فاختلاف التتابع الصوتى وتنوعه أحدث داخل الكلمات التى ينطق بها الإنسان دلالات مختلفة ، وطالما أن اللغة انسانية ، وليست غريزة ، فقد خضعت لما يمنحه الإنسان للأصوات من ارتباطات ، سواء فى داخل اللفظ أم فى داخل العبارة ، والمقصد من الصورة الصوتية ليس الصوت المادى فى ذاته ، فذاك شىء عضوى صرف ، ولكن المقصود هو الأثر الذى يحدثه الصوت ، وذلك الصوت المادى الصرف ليس جزافيا صرفا بصورة مطلقة ، ولكن الذى لا شك فيه ، هو أن هناك علاقة طبيعية بينه وبين الأثر الذى يحدثه ذلك الصوت فهناك علاقة بين الدال والمدلول .

وذلك الصوت المادى يجب ألا يفهم أن للمتكلم حرية فى اختياره، ذلك أن المرء لا يستطيع أن يحدث أى تغيير فى أية دالة بمجرد أن تستقر وسط مجموعة لغوية ، وكل ما يمكن القول فيه أننا لا نستطيع تفسير سر اختيار تلك الدالة ، أو لماذا كانت هى المنتقاة ، فالصوت الدال لا يمكن تبريره ، وإنما أتت جزافيته من جهة اشارته إلى المدلول عليه الذى لا يرتبط معه بأى رباط طبيعى فى الحقيقة .

---

(٣) المزهر ج ١ ص ٣٦ ـ ٣٧ .

وكما لاحظ علماء اللغة الأقدمون هذه الصلة الحميمة بين الصوت والحرف ، لاحظ البلاغيون أيضا طبيعة البنية الصوتية للكلمة ، وصلتها بدلالة الكلمة والتركيب من ناحية ، وبمفهوم الفصاحة والبلاغة من ناحية أخرى ، وانصب اهتمامهم على وضوح المعنى وانكشافه ، وافهام السامع وتبليغه ، وكان لابن سنان الخفاجى ممن استثمروا ملاحظات الخليل بن أحمد حول طبيعة البنية الصوتية للكلمة ، وصلتها بالدلالة ، فبدأ دراسته بتحديد ماهية الصوت اللغوى كما حددها من قبل ابن جنى ، ولكنه أضاف إلى ذلك ملاحظة هامة وهى أن سبب إدراكنا للأصوات أنها مختلفة ، فالراء مختلفة عن الزاى ، وكذلك سائر الحروف(٤) ويأتى الاختلاف أو الملامح المميزة distinctive features كما يقول علماء الأصوات المحدثون من وضع النطق ، يقول : « أن الصوتين المختلفين ليس محلهما واحدا فيقطع على تضادهما لامتناع اجتماعهما فيه ذلك الوقت الواحد ، بل محال الحروف المتغايرة متغايرة »(٥) .

والكلام عنده : ما انتظم من أصوات اللغة ، وهو يشترط الانتظام والافادة لكى يسمى الكلام كلاما ، وأقل ما تكون الكلمة عنده من حرفين ، والانتظام عنده أن يؤتى بالصوت تلو الصوت بلا فاصل زمنى ، لأنه لو أتى بحرف ومضى زمان ، وأتى بحرف آخر ، لم يصح وصف الكلام بأنه كلام ، وبالإضافة إلى الانتظام يشترط الإفادة ، لأن ما يسمع من المجنون يسمى كلاما وإن لم تصح منه الفائدة(٦) .

والإفادة عنده تتم بالمواضعة والوضوح ، لأن الغرض من الكلام ووضع اللغات بيان المعانى وكشفها(٧) ، فأول ما تهدف إليه

---

(٤) سر الفصاحة ص ١٨ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٠ .
(٦) نفس المصدر ص ٣٢ - ٣٣ .
(٧) نفس المصدر ص ٣٤ - ٤٨ .

العربية وضوح الدلالة وتخصيصها ، وجزء من وضوح المعنى وانكشافه يتمثل فى تجنب كل ما يثقل على الناطق تكلفه واللتفظ به كالجمع بين الحروف المتقاربة المخارج وما أشبه ذلك(٨) .

ولهذا يرى أن العربية أهملت الأبنية التى يصعب النطق بها لضرب من تقارب الحروف ، فلا يكاد يجىء من كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد فى كلمة واحدة ، وحروف الحلق خاصة مما قل تاليفهم لها من غير فصل ، وبشكل عام فإن الحروف المتقاربة المخارج مما تأنف منه السليقة العربية ، ولذلك لم يأت فى كلامهم: ثج ولا جق ولا كج ولا جك ولا قك ولا كق ولا سص ولا صس ، ولا سز ولا زس ولا صز ونحوها .

وقد اشترط لفصاحة الكلمة أن تكون واضحة الدلالة ، فلا ترتبط بدلالة هامشية مبتذلة ، وأن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف ، غير متوعرة أو وحشية ، وهو شرط وثيق الاتصال بالدلالة ، كما يتصل فى الوقت نفسه بالبنية الصوتية ، إلا أنه يجب التنبيه إلى أنه يعسر تحديد الدلالات المجردة فى اللغة كالحب والكره والسعادة مثلا ، فليست لدينا معايير دقيقة لتحدد معانى الكلمات المذكورة انها قد تتصل بمواقف محددة تحديدا دقيقا واضحا ، وهذه المواقف تشكل الغالبية العظمى من مواقف الكلام الإنسانى ، يقول أولمان : لقد سبق أن عرفنا المعنى بأنه علاقة متبادلة بين اللفظ والمدلول ، وعلى هذا يقع التغير فى المعنى كلما وجد أى تغير فى هذه العلاقة الأساسية(٩) .

---

(٨) نفس المصدر ص ٥٠ ـ ٥١ .
(٩) دور الكلمة في اللغة ص ١٥٥ .

وقد حاول العلماء فى هذا القرن تقعيد التغيرات التى تحدث للمعنى ، وتصنيفها على أسس منطقية ، وكان من أهم ما شغل علماء اللغة موضوع تغير المعنى ، وصور هذا التغير ، وأسباب حدوثه ، والعوامل التى تؤدى إلى حياة الألفاظ أو موتها وقد خلصت آراؤهم إلى أن نفس الكلمات بسبب تطور اللغة خلال الزمن تكتسب معنى آخر ، وتشرح فكرة أخرى ، ولهذا فإن ما نعنيه بتغير المعنى : هو تغيير الكلمات لمعانيها .

وإذا كان الثعالبى قد حاول تحديد مراتب بعض هذه الألفاظ كالحب مثلا الذى جعل من أنواعه الهوى والعشق ونحوها(١٠) فإننا سنلاحظ تعدد وتنوع كل نوع من هذه الألوان الدالة على الحب ، فأول معانى الحياة الروحية الحب ، وأول مراتب الحب الهوى ، ثم العلاقة ، ثم الكلف ثم العشق الخ .. ولكن المعاجم تسوى بين بعض هذه المراتب . فى القاموس أن الهوى : العشق يكون فى الخير والشر ، وفيه : (وهويه كرضيه فهو هو أحبه) وهو بذلك يسوى بين الهوى والحب ، والهوى والعشق ، كما يسوى بين الدلالات المختلفة للهوى فيقول : (الهوى : ميل النفس إلى الشهوة ، وقيل : العشق ويكون فى الخير والشر ، والهوى أيضا : إرادة النفس ، المحبة) .

ويقول فى بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز(١١) فى الحب والمحبة :

(ولا تحد المحبة بحد أوضح منها ، والحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء ، فحدها وجودها ولا توصف المحبة بوصف أظهر من

---

(١٠) فقه اللغة للثعالبى ص ٨٤ .
(١١) ج ٢ ص ٤١٦ تحقيق محمد على النجار - نشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية صدر الجزء الثانى سنة ١٩٦٥ .

المحبة ، وإنما يتكلم الناس فى أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها ، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة) فإن أردت تحديد ما تدل عليه المحبة لم تصل إلى تحديد قاطع أو اتفاق لا يحتمل النقص أو الطعن ، فلا توجد حدود تبلغ درجة الإحكام أو منزلة الاتقان والكمال ، فحدود الناس ورسومهم حول دلالة هذا اللفظ ستدور حول هذه الستة التى ذكرها الفيروزابادى.

ومن الواضح أن معرفة مادة الكلمة وأصلها الاشتاققى والصيغة التى صيغت بها لا تكفى غالبا لتحديد معناها تحديدا تاما دقيقا ، فإن كل كلمة بعد أن أخذت من مادتها الأصلية ، وبنيت على أحد الأوزان الصرفية ، استعملت فى مواطن من الكلام ، وخصصها الاستعمال بمعان أخص من المعنى العام الذى تدل عليه مادتها ، وبتعدد الاستعمال خلال العصور ، وفى مختلف المناسبات ، وشتى البيئات يتم أكثر من معنى ، ويجتمع بها أكثر من دلالة ، وللسياق قيمة فى تحديد المعانى وفهم الكلام ، وإن هذه الاستعمالات التى تستعمل فيها الكلمات وهذه المعانى الخاصة المحدودة التى تلازمها فى بعض العصور مدة طويلة أو قصيرة ، والبيئات التى تعيش فيها ، هى التى تكون شخصية الكلمة أو ذاتيتها (١٢) .

« ومن المعروف أن الدلالات المركزية لا يقنع بها الأدباء والشعراء والدلالات الهامشية فى أية لغة من اللغات مسألة فردية شخصية ، لا تكاد تعرض لها المعاجم أو تعنى بها »(١٣) .

هذه الدلالة الهامشية تسيطر على أذهان بعض الناس ، وأحيانا

---

(١٢) فقه اللغة وخصائص العربية - محمد المبارك ص ١٨٢ - ١٨٣ .
(١٣) دلالة الألفاظ د. ابراهيم أنيس ص ١١٦ - ١١٨ .

تفشل فى مهمتها ، فقد تسمى الأشياء بغير أسمائها ، وقد يزاد أو ينتقص من دلالتها ، وسواء أكانت تلك الدلالة الهامشية سببها الهوى والغرض ، أو أنها ناشئة عن عقيدة وإيمان فإنها تتصل اتصالا وثيقا بما يسمى عند علماء النفس بالعاطفة .

والواقع يقرر أن الناس ليسوا سواسية أمام الألفاظ ، ولسنا نعتقد أن الألفاظ تملك القدرات وتجلى الظلال التى تثير الفروق أو أنها تحمل أثر البيئات المختلفة والتجارب المتباينة والحوادث الكثيرة والثقافات المتعددة وغيرها عند استعمالها ، فكل لفظ يحمل فى طياته دلالتين : دلالة مركزية ودلالة هامشية ، فالدلالة المركزية : هى ما يسجله اللغوى فى معجمه ليصل بين الناس ، ويساعد على الوصول إلى نوع من الفهم التقريبى الذى يكتفون به فى حياتهم ، وقضاء مصالحهم .

غير أن هذه الدلالة المركزية تتلون بلون خاص فى ذهن كل فرد ، إذ تتلون بظلال تختلف باختلاف الأفراد وتجاربهم ، وأمزجتهم ، وتركيب أجسامهم ، وما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم إلى غير ذلك مما يسمى بالهامشية ، وهذا يدفعنا إلى القول أنه لا توجد مطابقة تامة بين ما يدور فى خلد المتكلم ، وما يدور فى خلد السامع ، فمما لاشك فيه أن كلا من المتكلم والسامع يختلف مستوى كل منهما من حيث التجربة والمزاج العام وتركيب جهاز النطق والمظهر الجسدى إلى جانب التراث العالق بذهن كل منهما من عادات وتقاليد ومفاهيم خاصة حول هذه الألفاظ ، ومن هنا قد نظن أن ما يفهمه السامع هو ما يقصده المتكلم ، فى حين أن الواقع يؤكد عكس ذلك .

هذا إلى جانب أننا « حين نعبر عن المعانى نضطر إلى التغاضى عن قدر ما منها ، وسر ذلك أن الكثير منها لا يستطيع المتلفظ أن

يضمه إلى عبارته ، ويختلف هذا المدى تبعا لعوامل شتى يحكمها ما ينسب إلى المجتمع والبيئة والطائفة ، وما قيل من عبارات فى مظان أخرى ، كل ذلك يضاف إلى ما حوله من قرائن حاكمة »(١٤) .

ومما يلزم مراعاته أن المتكلم فى أية لغة من اللغات لا يستطيع أن ينقل إلى مخاطبه الصورة الحقيقية التى يريد نقلها والإخبار عنها بجميع دقائقها وجزئياتها ، وذلك لأن اللغة إنما تقدم له ألفاظا تدل على عمومات وكليات وأنواع وأجناس ، وفى كل لغة قدر من التجريد ، وضرب من التصنيف لابد من ملاحظته ، والتجريد يؤكد أن ألفاظ اللغة مفاهيم مجردة ، جردها أصحاب اللغة من الواقع ، ونفهم ذلك إذا اعتبرنا أن كل لفظ تدخل تحته ألفاظ كثيرة ، ويسمى كل واحد منها بذلك اللفظ « ويبقى اللفظ مشاعا بينها قابلا للانطباق على كل واحد منها دون تخصيص ، فكلمة شجرة مثلا ، تنطبق على كل شجرة أيا كان نوعها ، وأنى كانت ، بمعنى أننا جردنا من أفراد الشجر الكثير المتنوعة فى أشكالها وألوانها وأطوالها وصفاتها صورة مشتركة بينها ، وأطلقنا على هذه الصورة المتخيلة المجردة كلمة شجرة »(١٥) ، ويأتى التخصيص أو التضييق نتيجة لإضافة بعض الملامح التميزية للفظ .

ولما كان اللفظ لا يوجد المعنى ، فان المعانى تظل هائمة حتى تقع عليها الألفاظ ، عند ذلك يخصص اللفظ المعنى إذا كان جنسا ، ويؤكده مبالغة فى تلوين صورته النفسية حتى تنطق أجزاؤه ، وحتى يقوم كل جزء منها فى البيان اللغوى مقام الكل الذى هو مادة الشعور الطبيعى(١٦) .

---

(١٤) د. محمد البدرى خليل . المجاز وأثره فى الدرس اللغوى ص ٥٢ .

(١٥) محمد المبارك ـ فقه اللغة وخصائص العربية ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣

(١٦) تاريخ آداب العرب ـ مصطفى صادق الرافعى ج ١ ص ٢٢٨ .

وعملية التخصيص الدقيقة فى هذا النظام تمتد لتشمل أفرادا وأجزاء ومعانى ، وهذه العملية ترمى إلى ترتيب الأجزاء وإبانة الصفات بألفاظ متباينة تعين الأجزاء أو الصفات على مقاديرها كما ترمى إلى تأكيد المعنى بالمبالغة فى تلوين صورته النفسية .

ومن الواضح أن التخصيص يقوم على تعيين درجات المعانى ، وتفضيل أجزاء الموجودات على درجات شعور النفس بذوات هذه الأجزاء أو بصفاتها ، وهذا يبين أنه فى نظام المعانى بالألفاظ يجب أن نلاحظ أنه ليس ضربا يرتبط بكلمة واحدة كانت عامة ثم خصصت هى نفسها ، فهذا اللون الذى تنتقل فيه الكلمة عينها من العموم إلى الخصوص : لون آخر ليس فيه تأكيد المعنى مبالغة فى تلوين صورته النفسية ، كما أنه لا أجزاء له تنطق ، ولا عمل له فى ترتيب هذه المعانى المخصصة أو الابانة عنها . إن هذا الضرب يقصر معنى العام على بعض أفراده ، ويضيق شموله ، أو يقصد ظاهرة التغير نحو التخصيص التى كثيرا ما تحدث فى اللغات بأن تخصص ألفاظ كان يستعمل كل منها للدلالة على طبقة عامة من الأشياء ، فيدل كل منها على حالة أو حالات خاصة ، وهكذا يضيق مجال الأفراد الذى كانت تصدق عليه هذه الألفاظ أولا ، فكلمة الفاكهة فى العربية كان من معانيها الثمار كلها ، ثم خصص هذا المعنى للدلالة على أنواع معينة من الثمار كالتفاح والموز والخوخ(١٧) .

ولفظ السبت فإنه فى اللغة الدهر ، ثم خصص فى الاستعمال نفسه بأنه أحد أيام الأسبوع وهو فرد من أفراد الدهر(١٨) .

---

(١٧) د. محمود السعران . علم اللغة ص ٣٠٨ ـ ٣٠٩ .

(١٨) السيوطى المزهر ج ١ ص ٤٢٧ وانظر فقه اللغة وخصائص العربية محمد المبارك .

ولفظ الصحابة وهو يعنى مطلق الصحبة ، وقد خصص بأصحاب الرسول ﷺ ، ولفظ الكفر ومعناه الستر والانكار . وخص بانكار الدين . ولفظ التوبة معناه الرجوع ، وخص بالرجوع عن الذنب .

ولفظ (الفرانى) كان يطلق على كل ما يخبز فى الفرن ، ثم خصص بنوع من أنواع الحلوى التى تصنع فى الفرن ، يقول الخوارزمى فى مفاتيح العلوم : « الفرانى : جمع فرنى . قال الخليل : هى خبزة عظيمة مشكلة مصعنبة تسوى ثم تروى لبنا وسكراً ، وهو منسوب إلى الفرن ، وهو تنور ضخم يخبز فيه »(١٩) .

ويذكر صاحب الزينة أن كلمة اللوح(٢٠) كانت تدل فى الأصل على نوع من المواد التى يكتب عليها ، ثم عممت على سائر الوسائل الأخرى ، ثم انتقلت الدلالة من الكتابة إلى بناء السفن وأشكال الأخشاب: فقد قال بعض أهل المعرفة : سمى اللوح الذى يكتب فيه لوحا لأنهم كانوا يكتبون فى العظام كعظم الكتف وغير ذلك ، وكل عظم كتبوا فيه سموه لوحا ، ثم قيل لكل ما يكتب فيه من الخشب لوحا ، لأنه نحت على تلك الهيئة ، واللوح العظم ، يقال رجل عظيم الألواح إذا كان كبير عظم اليدين والرجلين وكل عظم يسمى لوحا . قال الجعدى:

ولوحى ذراعين فى بركة إلى جؤجؤ رهل المنكب

وسميت ألواح السفينة ألواحا لأنها نحتت على هيئة الألواح التى يكتب فيها ، قال الله عز وجل : (وحملناه على ذات ألواح ودسر) .

---

(١٩) مفاتيح العلوم ـ الخوارزمى ص ٩٩ .
(٢٠) الزينة للرازى ج ٢ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ، وانظر كذلك فى الزينة ج ٢ ص ٨١ ـ ٨٢ مادة الجبار .

وهنـاك أنواع أخرى من التخصيص يسعى إليها اللفـظ لتخصيص المعنى إذا كان جنسـا مثل ذلك التخصيص الذى يقـع نتيجـة الحذف كحذف المضـاف إليـه أو الصـفة ، ومثـاله : لفـظ الدنيـا والأصـل : الحيـاة الدنيـا ، والجامعة ، والأصـل : المدرسـة الجامعة ، والعملية: أى الجراحية والكفيف : أى مكفوف البصر ، والمحروم : أى من المال(٢١)

ومثـل التخصيص بقرينـة استعمال اللفـظ فى سـياق معين من الكلام ، وبحسب بيئـة المتكلم أو المخاطب ، أو مناسبة الكلام كلفظ موسم بالنسبة للزراع أو الصـناع أو الرعـاة أو الباعـة(٢٢) .

ومن أمثـلة التخصيص أيضا : التخصيص بالحـرف المعين إذا كان يعين على تخصيص المعنى ، ففى مادة الجـر مثـلا : الحرف الصوتى هو الراء والجيم المعين ، وأوثر الجيم لمـا فيـه من الجهـد والشـدة والقلقلة ، وهو إبدال من أحـد الراءات الثلاثة عند من يرى تكرار المقطع واتصـاله ، وكالجيم الطـاء فى طن ، وهـذا عنـد من يرى أن الصوت الأصـلى يغلب عليـه مقطع واحـد بسيط ، راء أو سين أو صـاد أو غير ذلك ، وهـذا المقطع فى أغلب الأمر يتكـرر ويتصل ، ولمـا أريد محاكاته فى اللسـان السـامى ، اقتصر منـه على ثلاثة أحـرف لطبيعة فى هذا اللسـان تميـل إلى هـذا القـدر من الحروف ، ولكنهم أبدلوا من أحـد الحـروف حرفا آخر دفعـا لثقل التكرار ، وليكون اللفـظ فى صـورة مركب من حرفين ، وقـد يتقـدم حرف البدل ، وقد يتأخر ، وقـد يكون التعيين بحرفين كما فى رشف(٢٣) .

---

(٢١) فقـه اللغـة وخصائص العربية ـ محمد المبارك ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ .
(٢٢) نفس المرجع ص ٢٢٠ .
(٢٣) د/ عبد الله العزازى ـ فقـه اللغـة ص ١٣٠ ـ ١٣١ .

ويشبه بعض اللغويين تغير المعنى عن طريق اكتساب الكلمة لمعان جديدة بالشجرة تنبت فروعا جديدة ، وهذه الفروع بدورها تنبت فروعا أصغر ، الفروع الجديدة قد تخفى القديمة وتقضى عليها ، ولكن لا يحدث ذلك دائما ، فهناك كثير من المعانى السابقة ازدهرت وانتشرت لقرون على الرغم من نمو المعانى الجديدة اللاحقة .

ولاشك أن : « تخصيص العام لا يخرج اللفظ العام عن دلالته على العموم ، بل هو الأصل فى دلالته ، والتخصيص هو المحتاج إلى القرينة ، فحيث لا توجد القرينة ، فاللفظ العام حقيقة فى العموم »(٢٤) .

واللفظ يحمل معانى عديدة غير المعنى القاموسى العام ، فالمعنى المذكور ليس كل شىء فى إدراك معنى الكلام ، فثمة عناصر غير لغوية ، فلكل كلمة من الكلمات مضمون منطقى ، ومضمون أو ارتباط نفسى ، « والمضمون المنطقى وهو المعنى الذى ينص عليه القاموس فى الأغلب يكون الاشتراك فى فهمه واحداً أو شديد التقارب ولكن المضمون أو الارتباط النفسى يختلف من متكلم لمتكلم اختلافا كبيرا ، ولا يمنع هذا من أن يشترك جمهور المتكلمين باللغة فى طائفة كبيرة من إيماءاته ، ومما يرتبط به من ظلال المعانى ، ونحن لا نستعمل الكلمة بمعناها المنطقى مفصولا عن مضمونها النفسى ، ولا بهذا مفصولا عن ذاك ، إن الكلمة عندما تصدر عنا أو عندما تصل إلى أسماعنا تتضمن هذا وذاك »(٢٥) .

ولما كان التطابق التام فى جملة التجارب وتفصيلات الحياة

---

(٢٤) د/ عبد الوهاب خلاف - مقال فى الاصطلاحات الفقهية - مجلة اللغة العربية الجزء السابع سنة ١٩٥٣ ص ٢٣٦ .
(٢٥) د/ محمود السعران . علم اللغة ص ٣٠٢ - ٣٠٣ .

بين الناس أمرا مستحيلا ، فإن التكوين النفسى يختلف ، وفهم أحد الناس للكلمة ستلونه ايماءات وظلال من المعانى غير الايماءات وظلال المعانى التى تكون فهم الآخر لنفس الكلمة ، كما أن الاستجابة عند سماع نفس الكلمة لا تأتى بالتطابق ، ونحن لا نستطيع أن نخلص كلامنا من كل ارتباط نفسى ، وإذا حاولنا ذلك فإننا لا ننجح كل النجاح. « إن الرموز الرياضية المجردة مثلا يظل لها إيقاع صوتى ، ويثير هذا الإيقاع إحساسات فى نفس هذا ويثير غيرها فى نفس ذلك ، وقد يثير ذلك الإيقاع إحساسات مختلفة باختلاف السامعين أو القائمين .. وهكذا »(٢٦) .

إلى جانب هذا فإن لهجات الخطاب تسعى دائما إلى تخصيص المعنى ، فخصصت ألفاظا مثل كلمة الطهارة التى صارت تعنى الختان ، كما خصصت كلمة الحريم ، فبعد أن كانت تطلق على كل محرم أصبحت الآن تطلق على النساء ، وكذلك كلمة العيش تخصصت فى مصر بالخبز(٢٧) ، وفى بعض البلاد العربية بالأرز ، وكلمة حرامى ، هى فى الحقيقة نسبة إلى الحرام ، ثم تخصصت دلالتها واستعملت بمعنى اللص فى القرن السابع الهجرى فى بعض النصوص المروية ، فقد كانت المعانى تستعمل قديما مع إسقاط بعض الملامح التمييزية للألفاظ ، أما التخصيص فقد جاء نتيجة لاضافة بعض الملامح التمييزة للفظ ، فكلما زادت الملامح لشىء ما ، قل عدد أفراده . فكلمة مثل : Poison كانت تعنى : (الجرعة من أى سائل) ولكن الذى حدث هو أن الـ جرعة السامة دون غيرها هى التى استرعت الانتباه واستأثرت به لسبب أو لآخر . وبهذا تحدد مدلول الكلمة

---

(٢٦) نفس المصدر ص ٣٠٤ .
(٢٧) دلالة الألفاظ ص ١٢٥ ـ ١٥٢ . واللغة لفندريس ص ٢٥٦ وما بعدها .

وأصبح مقصورا على أشياء تقل فى عددها عما كانت تدل عليه الكلمة فى الأصل الى حد ملحوظ(٢٨) ٠

ويلعب الأداء الصوتى دورا بارزا فى تخصيص دلالات الألفاظ ، فالسامع يستطيع أن يستنبط من خلال الأداء الصوتى للمتكلم ما يخصص المعنى ويوضحه ٠

وقد أشار ابن جنى الى أن أهمية دور الأداء الصوتى وأثره فى تحديد وتخصيص دلالات الألفاظ ، فتنغيم الكلام ونبره يلعبان فى وذلك أن تكون فى مدح انسان والثناء عليه ، فتقول : كان والله رجلا، ذلك دورا ملموسا ، يقول : « وأنت تحس هذا من نفسك اذا تأملته ، فتزيد فى قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة وتتمكن فى تمطيط اللام واطالة الصوت بها وعليها أى رجلا فاضلا أو شجاعا كريما أو نحو ذلك ٠ وكذلك تقول : سألناه فوجدناه انسانا ، وتمكن الصوت بإنسان وتفخمه فتستغنى بذلك عن وصفه بقولك إنسانا سمحا أو جوادا أو نحو ذلك »(٢٩) ٠

د/ عبد الحليم محمد عبد الحليم

أستاذ أصول اللغة المساعد

كلية الدراسات الاسلامية والعربية

---

(٢٨) دور الكلمة فى اللغة ـ ستيفن أولمان : ص ١٦٥ ٠
(٢٩) الخصائص : ج ٢ ص ٣٧١ ٠

مـراجـــع البحـث

١ ـ **بصائر ذوى التمييز ، فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى :**
تحقيق محمـد على النجار ، نشر المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ـ صدر الجـزء الثـانى سنة ١٩٦٥ ، والثالث ١٩٦٨ ، والرابع ١٩٦٩ ، والخامس ١٩٧٠ م ٠

٢ ـ **تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعى :**
طبعة دار الأخبار بمصر ـ ١٩١١ م ٠

٣ ـ **الخصائص ، تحقيق محمد على النجـار :**
دار الكتب المصرية ـ ١٩٥٢ م ٠

٤ ـ **دلالة الألفـاظ ، د٠ ابراهيم أنيس :**
مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ـ ١٩٧١ م ٠

٥ ـ **دور الكلمـة فى اللغـة ، ترجمة د٠ كمال محمد بشر :**
الطبعة العاشرة ، مكتبة الشباب ـ ١٩٨٦ ٠

٦ ـ **كتاب الزينة فى الكلمات الاسلامية والعربية :**
القاهرة ، مطابع دار الكتاب العربى ، لأبى حاتم الرازى ، الجزء الأول ، ١٩٥٦ م ، والجزء الأول ، مطابع الرسالة ـ ١٩٥٨ م ٠

٧ ـ **سر صناعة الاعراب لأبى الفتح عثمان بن جنى :**
تحقيق د٠ حسن هنداوى ، دار العلم ـ دمشق ، ١٩٨٥ م ٠

٨ ـ **علم اللغـة ، مقـدمة للقـارىء العـربى :**
د٠ محمود السعران ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٢ م ٠

٩ ـ **فقـه اللغـة ، د٠ عبد الله العـزازى :**
نشر الجامعـة الاسلامية ـ ليبيـا ٠

١٠ ـ **فقه اللغـة وخصائص العربية للثعالبي :**
مطبعـة الحجـر ، ١٢٨٤ هـ ٠

١١ ـ **فـ قـه اللغـة وخصائص العربية، محمد المبارك :**
دار الفكر ـ بيروت ، الطبعة الرابعة ، ١٩٧٠ م ٠

١٢ ـ **المجاز وأثره فى الدرس اللغـوى ، د٠ محمد بدرى عبد الجليل :**
نشر الجامعات المصرية ـ ١٩٧٥ م ٠

١٣ ـ **مجلة مجمـع اللغة العربية :** الجزء السابع ، ١٩٥٣ م ٠

١٤ ـ **المزهر فى علوم اللغة ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرين :**
دار احيـاء الكتب العربية ـ عيسى البابى الحلبى ٠

١٥ ـ **مفـاتيح العلوم للخوارزمى ٠**